حوليات جامعة قالمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية
ISSN: 1112-7880 EISSN: 2602-5361
المجلد 18/العـدد 2 (ديسمبر 2024)، ص87-105

هرمية النّص الإقناعيّ في الخطب المستدركة على نهج البلاغة

The Hierarchical Structure of Persuasive Discourse in Supplemental Sermons on the Peak of Eloquence "Nahj Al Balagha"

وفاء دبيش [1]*

[1]جامعة 8 ماي 1945، قالمة (الجزائر)، debbiche.wafa@univ-guelma.dz

تاريخ الاستلام: 2024/02/20 تاريخ القبول:2024/05/05 تاريخ النشر: 2024/12/01

ملخص:

يرمي هذا المقال إلى تتبع ترتيب أجزاء النص الخطابي، ورصد أثر الإقناع فيه، من خلال كتاب مستدرك نهج البلاغة، محاولين إيجاد الروابط بين مستهل الخطب ومتونها وخواتيمها، وصولا إلى مدى اتساقها وتأثيرها.

وقد أملت علينا طبيعة الموضوع آتباع منهجيةٍ خاصّةٍ تبلورت في تحديداتٍ اصطلاحيةٍ عن ماهية الخطابة، ووظيفتها الإقناعية، ومقاربة حجاجية لنماذج مختارة من الكتاب حسب ما يسمح به متسع البحث زمنًا وإجراءً.

كلمات مفتاحية: *الإقناع، الحجاج، الاستهلال، العرض، الانتهاء.*

Abstract:

This article aims to trace the arrangement of the components of the discursive text and to observe the effect of persuasion therein, through the book "Mustadrak Nahj al-Balagha", endeavoring to establish links between the beginnings, bodies, and endings of the discourses, culminating in an assessment of their coherence and impact.

The nature of the topic required us to follow a specific methodology, which crystallized in terminological definitions of the nature of elocution, its persuasive function, and a comparative argumentative analysis of selected models of discourses from the book, according to the temporal and procedural scope permitted by the research.

***Keywords**: Persuasion, Argumentation, Introduction, Presentation, Conclusion*

* المؤلف المرسل: وفاء دبيش ، الإيميل : debbiche.wafa@univ-guelma.dz

– مقدمة:

وقف الدّارسون طويلا أمام الخطابة، استنطاقا لجماليتها، وتنقيحا لإبداعاتها، ونقدا لجزئيتها وتقييما لمعانيها، ومحتوياتها، وذلك عبر دراسات عديدة دارت في فلكها، منها ما تعلّق بلفظها وأسلوبها، وما كشف عن بنيتها، ومنها ما تعلّق بمضامينها، وخصائصها، وما كان حول صورها الفنيّة، ومحسناتها، وما تُرجم لخطبائها....

وكان لهذا الرصد الواعي للخطابة أثر عليها وحول بنائها خاصة، فقد عكف الدارسون على قراءتها قراءة متفحصة، مركزين في ذلك على أجزائها محاولين إيجاد الروابط التي ترتبط بين مستهل الخطبة وعرضها وخاتمتها وصولا إلى الحكم على مدى تماسكها واتساقها وجودة ربطها ومدى تأثيرها.

وتمحورت إشكالية البحث حول كيفية تصميم الإمام لهيكل خطابي هرمي يسعى من خلالها إلى الإقناع والتأثير والاستمالة، وقد ارتبطت هذه الإشكالية بالهدف الأساس من البحث، وهو إقناع المتلقي من خلال مراعاة ترتيب أجزاء القول وإحكام التنقل فيه من بنية إلى أخرى، فكلما كانت الحجة مرتبة في أجزائها كانت أدعى لقبول المتلقي وإذعانه بها، فالترتيب هو نفسه الحجّة.

1. ماهية الخطابة:

يقصد بالخطابة:" فن مخاطبة الجماهير بطريقة إلقائيّة تشتمل على الإقناع والاستمالة"[1]، ومن الواضح أنّ هذا التعريف ينبني على عناصر معينة هي:

1-أن من شروط الخطبة أن تكون مخاطِبة لجمهور من النّاس.

2-أن تكون بطريقة إلقائيّة، ومعنى هذا جهارة الصّوت، بإدراج النبرات الصّوتية، وتكييفها، ومحاولة تجسيم معاني الخطبة، وإظهار التأثر بها، فكل هذه العوامل تثير السّامعين، وتستميل عواطفهم نحوه، وتجعلهم يستجيبون لرأيه أكثر.

3-أن يكون الحديث مقنعا، غنيّا بالأدّلة والبراهين التي تؤكّد صحّة الفكرة التي يدعو إليها الحديث.

4- أن تشتمل الخطبة على عنصر الاستمالة الذي من شأنه أن يوجّه عواطف المستمعين لرأي الخطيب، وهذا ما يحقّق الاستجابة والإقناع.

ويشاطر **محمد الحوفي** هذا الرّأي قائلا:" الخطابة تعني فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته، فلابدّ من مشافهة، كانت كتابة أو شعرا مدونا. ولابدّ من جمهور يستمع، وإلا كان الكلام حديثا أو وصّية، ولابدّ من الإقناع".[2]من خلال ذلك يتضّح لنا أنّ الخطابة تقوم على أسس أهمها: المشافهة، الإقناع، الاستمالة.

وقد عرّف **أحمد الشّايب** الخطابة بأنّها:" فن كلاميّ، يتّجه إلى الفكر، والعقل، والإدراك بالبرهان، والإقناع، وإلى العاطفة، والشّعور، والوجدان بالاستشارة والتأثير مستعينة في هذا بوضوح الحجّة، وسلامة المنطق، وقوة البرهان، مع جمال الخيال، وحسن الصّور الشّعرية لتحقّق في النّهاية غايتها التي تهدف إليها"[3].وعليه فالخطابة تتعامل مع العقل والعاطفة على حدّ سواء، إلا أنّ تركيزها على العاطفة واضح، والسّر في نجاح الخطابة هو الاتصال المباشر، والمفهوم بين الخطيب والجمهور، ليصبح اتصالا متكاملا.

2. علاقة الخطابة بالإقناع:

تختلف الأنواع الأدبيّة فيما بينها من حيث الالتزام، والتعبير الإيجابي، الذي يكشف عن التنازع والخصام، وإذا ما حاولنا تحديد موقع الخطابة بين باقي هذه الأنواع الأدبيّة، نجدها أشدّ التزاما؛ لأنها تهدف إلى التأثير والإقناع، معبّرة عن عقيدة الخطيب، ورأيه في مشكلات الوجود، تشتد باشتداد الأزمات التي ترتبط ارتباطا جذريا بمصير الجماعة، وتقرير مستقبلها، وترجحها بين النزاعات، والتيارات التي تحدّق بها، فهي ربيبة السّلاح تواكبه، وتعوّض عنه. وأحيانا كثيرة تشحذه وتحفزه، وتقتحم ملاحم الدّمار، والتقتيل، والمنكر، وما إلى ذلك مما ألِف النّاس دعوته بطوله ومجدا.[4]

وكانت الخطابة منذ القديم ضرورة اجتماعية تفرضها الظّروف، باعتبارها تُعنى بالمجتمع وتعبّر عنه بوجه عام، حتى غدت وسيلة لا يمكن الاستغناء عنها، أو تعويضها.

وقد كان لظهور الإسلام وانتشاره في سرعة تفوق الوصف، من أعظم حوادث العالم التي أزاحت من الأرض جبروت أمم سالفة، فتطلبت الاستعانة ببلاغة الكلام، قبل تجريد الحسام.

ولما كانت الخطابة هي الوسيلة المثلى لمخاطبة الجماهير والتأثير في عواطفهم، واستمالتها بعد إقناعها، فقد ظفرت بمنزلة رفيعة وشأن راق، فاستُخدمت وسيلة إقناع للدّين الجديد. وأصبح للعرب القدرة على الارتجال في الخطابة، كما كان لها بالغ الأثر في تحفيز الهمم، وحماسة المحاربين وقت الغزوات والحروب.

3. مضمون كتاب "مستدرك نهج البلاغة":

لقد حرص مؤلف الكتاب **الهادي كاشف الغطاء** أن لا يذكر في مؤلفه هذا شيئا مما رواه السّيد الشّريف في كتابه نهج البلاغة، إلا أن يكون ذلك سهوًا أو نسيانًا، لا قصدًا واعتمادًا، ونجده عَمَدَ في بعض الأحيان إلى رواية الكلام المختار في النّهج، إذ وجده في رواية أخرى موضوعا غيّر وصفه في الأولى إما بزيادة مختارة، أو لفظ حسن العبارة، أو لغير

ذلك من الأمور التي تقضي بالتعدّد، وتوجب التغاير، وربما يوجد بعض ما يورده من الخطب فقرات مرويّة في النّهج برواية أخرى، ولا غروفي أن تكرار الفقرات في الخطب، كتكرار الآيات في السور، هو المسك كلما كرّرته يتضوّع.

والملاحظ في آخر مقدمته أنّه لا يدّعي الإحاطة بجميع ما لم يذكره **السّيد الشّريف** من كلام **الإمام علي** *رضي الله عنه*، بل نجده يقرّ بأنّ ما فاته منه أضعاف ما وقف عليه، لكثرة مضانه، ومصادره التي يصعب الإحاطة بها، إلا بعد زمنٍ طويلٍ.

فما نستخلصه من هذا كلّه، أنّ المؤلِف أحسن تسمية كتابه بالمستدرك؛ لأنّه استدرك ما فات **الشّريف الرّضي** من كلام أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه، وحاول بجد أن يضيف ما غاب عنه، وأن يلحق ما استعسر عليه، فجمع مختار كلامه مرويا في غير النّهج، جاريا على منواله، مرتبا على أبوابه الثّلاثة الخطب والأوامر، الكتب والوصايا، الحكم والآداب، واجتهد في ذلك بصبر، وأناة، وتواضع جميل.

4. ترتيب أجزاء القول في خطب المستدرك:

إن مراعاة ترتيب أجزاء القول وإحكام التنقل فيه من جزء إلى آخر تنتهي به إلى تصميم بناء تفاعلي مدعوما بأدوات ووسائل توظف لغرض الإقناع، إذ لا شك أن تراتبيات الحجج أكثر أهمية من الحجج نفسها، إذ يجب أن تصاغ صياغة مناسبة في تصميم محكم، يتخير له الخطيب اللفظ والتركيب الحسن، وتهيئة مخطط مناسب للخطابة ممثلا في ثلاث بنى هي: بنية الاستهلال، بنية العرض، وبنية الانتهاء.

1.4. بنية الاستهلال:

الاستهلال في لسان العرب مصدره الفعل "هَلَلَ" ويرمز إلى بداية الهلال، وبداية المطر، وبداية بكاء الصّبي[5].ويُجيز **الزّمخشري** في أساس البلاغة إطلاق اسم الاستهلال على المطلع، فيقول في مادة "هَلَلَ" :"ومن المجاز ما أحسن مستهل قصيدته: مطلعها"[6].

ولا نجد مانعًا من استخدام (الاستهلال) مصطلحا لبحثنا، ونعني به القراءة النّقدية لمقدّمة الخطبة، ويُطلق عليها البّعض المطلع، أو الابتداء[7].

وسيركّز بحثنا في هذا العنصر على ربط الاستهلال بموضوع الخطبة، وما يقدّمه من إضاءةٍ لها وعلاقته ببنية الخطبة، وتعدّد أشكاله، ومدى تأثيره في نفس متلقيه.

إنّ براعة الاستهلال، وجودة الابتداء هدف يصبو إليه كل خطيب يطمح إلى الإقناع باعتباره الوّمضة الأولى التي تربط الخطيب بالمتلقي، وأول ما يَطرُق السّمع من الكلام، ومن ثم يتوفر للمتلقي دواعي الاستماع له، والفهم لمضامينه.

ويعرّفه **أحمد الهاشمي** بأنه " جعل أول الكلام رقيقا سهلا، واضح المعاني مستقلا عمّا بعده، مناسبا للمقام، بحيث يجذب السّامع إلى الإصغاء بكليته"[8].

فالاستهلال ينقل السّامع من حالة لا مبالاة إلى حالة أخرى، يصبح فيها أكثر استيعابا، وقابليّة لما يقدّم إليه من أفكار؛ فإذا تمكّن الخطيب من جذب انتباه السّامع، واستشارته عبر المقدّمة يكون قد مهّد لنجاح خطبته؛ لأنّ " الخطيب كالشاعر لا يؤثر في السّامع، إلا إذا وُفّق في تخذيره، وبثّ الغفلة والذّهول في قواه المدركة، حتى يتقبل المعاني، والأفكار، وينفعل بها، ويتصرّف بتأثيرها تصرفا يوافق هواه" [9].

فمفاد هذا أنّ المقدّمة أو الاستهلال الذي يسوقه الخطيب، له دور مهم في جعل السّامع ينقاد إلى أقواله، وقد يتحوّل عن موقفه السّابق بفعله (الاستهلال). وبعد هذا العرض الموجز عن ماهية الاستهلال، وتأثيره، نأتي إلى خطب الإمام، حتى نقف فيها على أنواع الاستهلالات التي كانت أداة فنيّة محمّلة بفكره وعاطفته، عبر قراءة تحليليّة فنيّة لأنواع الاستهلالات التي تصدّرت مفتتح الخطب محاولة منّا لتقييم بنية النّص الحجاجي الخطابي.

إنّ ما نلحمه من تصفحنا لخطبه رضي الله عنه، هو أنّ استهلاله يحمل في طياته شحنة إيمانيّة ظاهرة، والدّليل على ذلك أنّ كلّ كلمة احتوتها دلالة الاستهلال، أوحت إلى معاني الإيمان ودارت في فلكها، ومثال ذلك حاضر في كثير من خطبه، فيستهل خطبته في المدينة المنوّرة بالحمد والثناء لله، مع وصف رائع، وبليغ للخالق عزّ وجلّ، وهذا في قوله:" الحمد لله الذي منع الأوهام أن تنال وجوده، وحجب العقول أن تتخيل ذاته لامتناعها من الشّبه والمشاكل، والنّظير والمماثل، هو الذي لا يتفاوت في ذاته، ولا يتبعّض بتجزئة العدّد في كماله، فارق الأشياء لا باختلاف الأماكن، وتمكّن منها لا على جهة الحلول والممازجة(....)،نحمده بالحمد الذي ارتضاه من خلقه، وأوجب قبوله على نفسه وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله، شهادتان ترفعان القول، وتضاعفان العمل خفّ ميزان ترفعان منه، وثقل ميزان توضعان فيه، بهما الفوز بالجنّة، والنّجاة من النّار، والجواز على الصّراط"[10].

إنّ الإمام **علي** كان بحاجة ملّحة لهذا التكثيف الذي يحمل في طياته وضوح المعنى، ليضمّن وصول أفكاره إلى المتلقي مباشرة، ولا أظنه إلا مصيبا في هذا، فكيف له أن يسوق جملة من النصائح، والحكم المفيدة، دون أن يمهّد لذلك بوصفه جل وعلا، والإقرار بعبوديته، والإسهاب في حمده والإطالة في وصفه.

وهذا ما كرّره في مستهل خطبته المشهورة الخالية من الألف التي رواها الخاصة والعامة ارتجلها من غير تريث، ولا تفكير فقال:" حمدت من عظمت منته، وسبقت نعمته، وتمت كلمته، ونفذت مشيئته، وبلغت حجّته، وعدلت قضيته، وسبقت غضبه رحمته، حمد

مقر بربوبيته، متنصّل من خطيئته، معترف بتوحيده، مستعيذ من وعيده، مؤمل منه مغفرة تنجيه، يوم يشغل كل عن فصيلته، وبنيه، ونستعينه، ونسترشده، ونؤمن به، ونعبده(....)، ربّ متفرد بعزته، متمكّن بقوته، متقدّس بعلوه، متكبّر بسموه، ليس يدركه بصر، ولم يحط به نظر، قوي منيع، بصير سميع، علي حكيم، رؤوف رحيم(....)، قرب فبعد، وبعد فقرب، يجيب دعوة من يدعوه، ويرزقه، ويحبوه، ذو لطف خفي، وبطش قوي، ورحمة موسعة، وعقوبة موجعة"[11].

وإذا كان الإمام قد أجاد توصيل مضمونه عبر تكثيف المعنى الدّلالي، فقد تعانقت مفرداته اللّغوية بسياقاتها، وما زان استهلاله أكثر تلك الكلمات الموزونة المسجوعة، التي شكّلت إيقاعا داخليّا نابعا من حسن اختيار الكلمات، التي تعلق في الأذهان، لتغلغلها في النّفوس دون استئذان؛ لأنّها مكلّفة بنقل مناخ الخطبة إلى المتلقي، لذا كان لزاما على فقرات استهلاله أن تترابط، وتتعانق في وحدة عضوية، ونسيج محكم البناء، وفي المقابل وتّحديدا في خطبته" في الملاحم" ،نجد له ضربا آخر من ضروب الاستهلال المتمثل في قوله:" سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، أما والله لتشغوّن الفتنة الصّماء برجلها، وتطاء في خطامها".

هنا نجد الإمام علي استهل خطبته بفعل أمر تضمّن في داخله معنى النصيحة، وأتبعه بمثل عربي معروف يُراد به أنّ القليل إلى القليل كثير، فاستهلاله بهذه الطريقة جاء مقصودا إذ أنّ الإمام كان يرمي إلى تهيئة المتلقي ليشاركه قلقه، وخوفه من المجهول، ويعزّز حماسهم، ويدفعهم إلى افتكاك النّصيحة، والخبرة قبل فوات الأوان، وتغيّر الأحوال، ولهذا الاستهلال علاقة وطيدة بمحتوى الخطبة التي دارت حول الحديث عمّا تنبأ به الإمام لقومه، وهو ذو الدّراية العميقة، والخبرة الواسعة.

وفي خطبة أخرى يستهل الإمام حديثه بالسؤال لقوله :" ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا اثّاقلتم إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدّنيا، وبالذّل والهوان من العزّ؟"[12]. فهو باستفهامه، وتساؤله يحثّهم على الجهاد، وفي هذا الصّدد يقول حازم:" ويجب أن تكون المبادئ جزلة حسنة المسموع، والمفهوم دالّة على غرض الكلام، وجيزة تامة، وكثيرا ما يستعملون فيها النّداء، والمخاطبة والاستفهام، ويذهبون بها مذاهب من تعجب، أو تهويل، أو تقرير، أو تشكيك، أو غير ذلك"[13].

ويوحي استعماله للتضاد(الحياة الدّنيا ≠ الآخرة ، الذّل≠ العزّ)، بمدى إحاطته بنفسيّة جنوده، ومعرفته بأساليب استثارتهم، ومحاولة تجديد عزيمتهم، والنزوع بها إلى درجة التطبيق كما نجده يخيّرهم بين الدّنيا والآخرة، وبين الذّل من العزّ؛ لأنه يدرك جيدا أنّ جنده

شديدي التأثر بشرفهم، ومتمسكين بما يرفع من شأنهم بين القبائل، فهو بذلك يلهب نار حماسهم، ويرغّب الجهاد في نفوسهم.

نلحظ من مضمون الاستهلالات السّابقة أنّها تنقل إلى نصوصها حركة تنتشر في مضمون الخطبة تفرضها طبيعة الاستهلال، ففي رأيي أنّ الإمام عليّ جعل من مفتتحه معبرا يُطلّ به على جنبات الخطبة، غير أنّ الواضح مما سبق يكشف عن وجود بنية نصيّة تتنامى وتتعالق مع بعضها بعضًا حسب طاقة الاستهلال الإيحائية الكامنة فيه، والتي ترتبط عضويًا بمضمون الخطبة، وعلى شاكلة ما سبق، يستمر الإمام في استهلال خطبه بطرق متنوعة، فها هو يبدؤها بالتعجب في قوله: «مالنا ولقريش، وما تنكّر منّا غير أنّا أهل بيت شيّد الله بنياننا، واختارنا عليهم"[14].

يتبيّن لنا من خلال هذا الاستهلال أنّ الإمام كان يتظلّم من قريش، ويلقي اللّوم عليهم ويسوق لهم الحجج، والبراهين التي تثبت أنّه الأحسن، فهومن شدّة اندهاشه لصنائع قبيلته فيه يستهل خطبته ب:" ما التعجبيّة" التي يُترجم من خلالها غضبه، ويعبّر بها عن مدى استهجانه لتنكر أهله له، غير أنّ التعجب في صدارة هذا الاستهلال يدفع المتلقي إلى مشاركة الإمام بما يحسّه من آلام تعتصر قلبه، وغضب يحرق أعصابه، وما زاد خطبته تماسكا هو إجادته في إحكامها، حيث نجد له ذوقا فنيّا رفيعا في الرّبط بين مستهل الخطبة، وموضوعها حتى لا يخلق فجوة ينفر منها المتلقي.

كانت هذه بعض الاستهلالات التي جعلها الإمام مطلعا لخطبه غير أنّ البارز في معظمها الحمدلة، والشّكر باعتبارها سنّة مقتبسة عن النبي "*صلّى الله عليه وسلّم*" ،يُظهر بها الإمام إيمانه المطلق في كل أمر شاءه الله راضيا به مقرا بالعناية الإلهية وتجلى ذلك في خطبته في الكوفة بعد التحكيم، وخروج الخوارج من أهل البصرة "الحمد لله، وإن أتى بالخطب الفادح، والحدثان الجليل وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدا رسول الله"[15] .

فيستهلّها هنا بالحمدلة مع حلول الخطب الفادح، والحدث الجليل، وفي اعتقادي أنّ كلّ ذلك ينم عن قوّة إيمانه، فلا يمكن للمصائب أن توهن عزمه، وتخذله ، وتنزع أحلامه وتنغص عيشه، إلا أنّها لا توهن أبدًا إيمانه، ولا تضعف تقواه، ولا تزعزع عقيدته، وقد يصيبه الشّك بكل من حوله، لكن لا يمكن للشّك أن يجد طريقا إلى دينه، ولا منفذا يقنط به من رحمة خالقه.

ويضرب لنا نموذجا مخالفا لاستهلاله في خطبة عسكرية:" لا تقتلوا القوم حتى يبدؤوكم، فأنتم بحمد الله على حجّة، وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجّة أخرى، لكم فإذا قتلتموهم فهزمتموهم، فلا تقتلوا مدبرا، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، فإذا وصلتم إلى رحال القوم، فلا تهتكوا سترا، ولا تدخلوا دارا، ولا تأخذوا مالا إلا ما

وجدتم في معسكرهم، ولا تهيجوا امرأة بأذى، وأن شتمن أعراضكم، وسبين أمراءكم، وصلحاءكم ...."[16].

فالواضح أنّ الخطبة تعتمد القيم الدّينية دون القيم الوطنية، والسّياسية استهلها الإمام مباشرة بالأمر، واستعان بجملة من الألفاظ التي تحمل الإثارة في طياتها، ولعلّ مما يضاعف تأثيرها ويرسّخه هو أخذ بعضها ببعض، وما زاد المعنى إيحاءً وإقناعا هو مزج الإمام للألفاظ، والمعاني بالجو النفسّي الذي يواكبها.

والجليّ من كلّ ذلك أنّ الإمام علي قد أجاد صياغة المطالع، وكأنه تأثر بمقولة ابن رشيق: "إنّ حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطيّة النّجاح"[17]، كما نوّع في استهلالاته حسب موضوع الخطبة فمرّة يفتتحها بالأمر، وتارة بالسّؤال، وأخرى بالتعجب ، والسّمة الغالبة على هذا كلّه استهلاله بالحمدلة، والشّكر وهما أمارة الخطابة الإسلامية ويعكسان صدق إيمان الإمام، ومدى تمسكه بدينه .

كما لمسنا تخصيص الإمام للابتداءات بالانتقاء، لعلمه بمدى تأثيرها، كونها أول ما يطرق السّمع من الكلام " فإذا كان الابتداء لائقا بالمعنى الوارد بعده، توفرت الدّواعي على استماعه"[18]، فهذا ما تطلّع نحوه الإمام من وراء استهلاله، وعمل على تحقيقه.

2.4. بنية العرض:

هو: " الخروج والانتقال مما ابتدئ به الكلام إلى الغرض المقصود برابطة تجعل المعاني آخذا بعضها برقاب بعض، بحيث لا يشعر السّامع بالانتقال من نسيب إلى مدح أو غيره لشدّة الالتئام، والانسجام "[19]، لهذا لا نشك البتة في أنّ معالجة موضوع الخطبة هو أهم قسم فيها، فهو يعكس مدى الثّقافة العميقة للخطيب التي تحاول جاهدة " إثارة السّامع بالتعجب والاندهاش فضلا عن الحماسة والمشاركة"[20].

ولقد اعتاد علماء البلاغة على تقسيم موضوع الخطبة متدرجين في ذلك من الأفكار العامة والرئيسية إلى الأفكار الثانوية وهذا ما يدفعنا إلى الحديث عن الأقيسة التي تتولى توليد الأفكار باستخلاص نتيجة لمقدمتين لكن عيب هذا القياس يكمن في اعتماده على المنطق الجاف الذي يعجز السامع عن الولوج من خلاله إلى أبعاد الخطبة وتقريب أفكارها من المتلقي؛" لأنّ المنطق الجاف المباشر إذا ما استبد بالخطبة فإنّه يعزلها عن السّامعين، ويدعهم في لا مبالاتهم؛ لأنّ الجماهير لا تتأثر بالمنطق بقدر ما تتأثر بالعواطف، والصّور، والأخيلة"[21].

لذلك ميّز **أرسطو** بين نوعين من القياس: أ- المنطقي. ب- الخطابي.

يتوقّف الأول على الاستدراج الواقعي العلمي، والثّاني يقوم على كثرة الأدّلة المشوبة بالعاطفة، والانفعال، يغالي في تصويرها حتى يظن السّامع أنّها أقرب إلى الحقيقة ويُوَفّق الخطيب في التأثير على السّامعين.

أما الاستدراج فيمنع الخطيب من تدفق أفكاره دفعة واحدة إلى السّامعين، بل يحاول أن تترتب أفكاره عبر مراحل، ليتمكّن السّامعون من الإيمان بها، والانقياد إليها دون وعي منهم بذلك، غير أنّ المستساغ من السّامع فضلا عن ذلك كلّه هو اعتماد القصص في الخطبة لإسهامه الكبير في تقريب المعاني من الأذهان.

ونأتي الآن لنقارن كلّ ما سبق مع خطب الإمام علي، علّنا نجد آليات أخرى، استعان بها للوصول إلى إقناع سامعيه، ولابدّ أن نشير إلى أنّ الخطب التي سبق وأن تعرضنا إليها بالاستهلال هي نفسها التي سنتعرض لها الآن من ناحية الموضوع، وبنفس الترتيب، حتى نتمكّن في الأخير من الحكم على مدى وحدة الخطب، وتماسكها، وقدرتها على التأثير.

إنّ خطبة الإمام في المدينة المنورة احتوت على كمّ هائل من النّصائح، والحكم التي تفيد السّامع في أمر دينه، ودنياه والمتمعن في هذه الخطبة يلحظ إكثار الإمام من لا النّافية التي من خلالها يرفع من شأن الإسلام، والتقوى، والورع، والتوبة، والعافية، والسّلامة، والرّضا، والقناعة، والعلم، والحلم، والأدب، والصّمت...إلخ، ويختم هذا المقطع بعظة الموت داعيا المسلمين إلى إدراك قربه من الغنيّ والفقير.

وفي المقطع الثّاني من هذه الخطبة يحذّرنا من زلاّت عديدة، لها بالغ الأثر على ديننا ودنيانا؛ فالانشغال بعيوب النّاس، والكيد لهم، وهتك أعراضهم، والتكبر عليهم، ومخالطة الأنذال وإطلاق العنان للّسان كلّها صفات لا خير فيها لما فيها من دناءة، وانحطاط للمسلم .

ويأتي المقطع الثّالث بحلّة نثريّة فنية تبدو أقرب إلى الرّنة الموسيقيّة التيّ مهمتها إثارة الانتباه، فهو هنا يتعرض لمجموعة من الأفكار المتفكّكة المجزّأة لكنها تتكاثف جميعا لتحقّق لحمة واحدة تفيد السّامع، وتضيء طريقه، وتهديه إلى سواء السّبيل؛ فالتحذير من البخل، والزّندقة، وكثرة المزاح، وذهاب الأخلاق، والحث على الصدقة، والصفح، وسعة الأخلاق كلها نصائح عامة مفيدة تعرض لها الإمام فأنار الطريق لسامعيه ويسّر لهم سبل العيش في أمان وسلام، ولم يتوقف الإمام عند هذا الحدّ فحسب، بل حاول أن يغوص بنصائحه إلى أبعد من ذلك فنجده في المقطع الموالي من الخطبة يرشدنا إلى ما فيه صلاح ديننا ودنيانا، كما في قوله:" سل عن الرّفيق قبل الطريق، وعن الجار قبل الدّار، واستر عورة أخيك لما يعلمه فيك، واغتفر زلّة صديقك ليوم يركبك في عدّوك..."[22]، فاستعماله لصيغة الأمر هنا لم تكن بغرض التسلط، والتعسف، وإنما كانت لغرض النّصح، والإرشاد؛ فطبيعة الخطبة هي التي تطلّبت هذا النّوع من الأسلوب، وفي آخر مقطع من هذه الخطبة يُظهر لنا الخطيب ما تحتويه

شخصيته من نفحات إيمانية ترجمتها لنا ألفاظه النّابعة من قلب صادق، ولسان ذاكر، ونفس مؤمنة؛ لذا نجده يؤكّد على :"تقوى الله في الغيب والشّهادة، وكلمة الحقّ في الرّضا، والغضب، والقصد في الغنى، والفقر والعدل على الصّديق ،والعدو...."[23]، وينطوي هذا الجزء على تسلسل منطقي، وبخاصة في قوله: "لا يكون المسلم مسلما حتى يكون ورعا، ولن يكون ورعا حتى يكون زاهدا، ولن يكون زاهدا حتى يكون حازما، ولن يكون حازما حتى يكون عاقلا..."[24]؛ فالأساس هو العقل والغاية هي الورع، وهذا التسلسل، والتدرج هوما يزيد في الإقناع، والإفهام لتولّد الجمل اللاحقة من السّابقة تولدا عقليا، واقعيا يبتعد فيه الخطيب عن الأسلوب الإيحائي التمثيلي.

أما موضوع خطبته الخالية من الألف، فجرت مجرى الوصيّة؛ لأنه يطالعنا فيها بقوله: "وصيتكم معشر من حضرني..."[25]، سعى فيها الإمام إلى تجديد عزيمة المسلمين بالتقوى، والرّهبة والذّكر، والخشية، وتدارك ذلك في الدّار الدّنيا، وقبل فوات الأوان مستعملا في ذلك وسائل الترهيب، والترغيب متدرّجا في عرضه بادئا بوصف حال الإنسان، وحلول الداء في جسمه، ثم ينتقل إلى وصف سكرات الموت وما يليها. بعد ذلك يعرّج بنا إلى مآل الإنسانيّة، إما جنّة، وإما نار، فخطبته هنا تشكّل لحمة واحدة، نظرا لوحدة موضوعها، وما زانها من حسن انتقاء للألفاظ رغم ارتجالها، وما حفلت به من زخرف بياني ممزوج بنزعة إيقاعيّة تُطرِب، وتُهذّب في مثل: "وليغتنم كلّ منكم صحته قبل سقمه، وشبيبته قبل هرمه، وسعته قبل فقره، وفرغته قبل شغله وحضره قبل سفره، قبل كبر ،وهرم ،ومرض، وسقم، يملّه طبيبه، ويعرض عنه حبيبه، قيل هو موعوك، وجسمه منهوك...إلخ"[26].

وإذا دققنا في مثل هذه الأسجاع، تبين لنا أنّها وردت عفوا، وبداهة دون تعمّد أو رغبة، ولم تلهه الرّغبة الجماليّة عن تحرّي الدّقة، والإيضاح في خطبه؛ لأنّ منهجه المنطقي كما سبق وذكرنا، "يضع السّامع أمام واقع يشاهده، ويتلمسه بحواسه، وتسهم في إقناعه عن طريق العقل، والمنطق"[27]، والواضح أنّ ارتجال الإمام لهذه الخطبة، وبهذا الشّكل ينم عن عمق ثقافته ومدى خبرته بطبائع النّفس، فنحس من خلال ألفاظه شدّة انفعاله؛ لأنّه يضع نفسه الوصّي على النّاس والإسلام ، لذا نجد أزماته وأحداثه تنعكس بشكل ظاهر على خطبه في حلّة بلاغيّة تحدث الانفعال في نفس السّامع .

أما عن خطبته في الملاحم؛ فنراه يخاطب قومه بأمور مستقبليّة تنبأ لها الرّجل بفعل بعد نظره، وسعة اطلاعه، رادعا إياهم، مبديا غيظه، وانزعاجه من تكاسلهم، ولا مبالاتهم، مُظهرا خوفه ممّا سيصيبهم، وهذا في قوله :" ولكن أفضيه إلى من أفضيه إليه مخافة عليكم ونظرا لكم علما مني بما هو كائن وما تلقون من البلاء الشّامل "[28]، لكنّ ما نلحظه في هذه

الخطبة، هو تقديمه لصورة شاملة، ومعمّمة عن الموضوع، ثمّ يبدأ في التخصيص، كما في :" حين تسكرون من غير شراب وتحلفون من غير اضطرار وتظلمون من غير منفعة وتكذبون من غير إحراج(...) قولكم البهتان وحديثكم الزور وأعمالكم الغرور..."[29]، فما تنبأ به الإمام من البلاء الشّامل أفصح عنه في سياق خطبته، لعلمه بما في كلّ ذلك من بليّة لا يمحى أثرها مهما طال الأمد؛ لأنّ في ذلك فقدا لشرف المسلم وكرامته، وفي معرض حديثه عن الجهاد نرى أنّ الإمام يصوّر حال قومه حين يدعون إلى الجهاد، ويتبع ذلك بأساليب قاسيّة تعكس قدر انفعاله، وتأثره من تخلّفهم عن الجهاد في سبيل الله كما في قوله:" ما أنتم بثقة سجين اللّيالي، ولا بركب يُصال بكم، ولا ذي عزّ يُعتصم إليه، بئس حشّاش الحرب أنتم..."[30].

ونجده ينحدر في تشبيههم بما هو دون الإنسان، وهدفه هنا ليس الانتقاص من قدرهم، ولا المساس بكرامتهم، ولكنّ القصد وراء ذلك بثّ روح الحماسة فيهم، وتجديد العزيمة في قلوبهم، وهذا في قوله :" كلّما ندبتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت في سكرة (...)، وكأن أبصاركم كمه فأنتم لا تبصرون(...)، ما أنتم إلا أسود الشّرى في الدّعة، وثعالب روّاغة حين تدعون إلى البأس..."[31]

وما نلحظه هنا أنّ غضب الإمام، ونقمته لم يغنيانه عن التوسل بما يثير عواطفهم فراح يصوّر لهم جبنهم بعد أن تخاذلوا، وجروا عليه العار وعليهم، ولعلنا نستشف في هذه الخطبة ثورة نفسيّة عاشها الإمام، غمرته بكثير من العصبيّة، والتوتر تجلّت من خلال نقمته التي بدت خلال الألفاظ، والمعاني، والصّور التي حاول الخطيب إخفاءها؛ لكنها ظهرت من خلال أسلوبه المعتمد في التغيير.

وللإمام خطبة أخرى تُظهر لنا مدى تأثره بظلم قريش له، رغم ما قدّمه لها من خير، وما أناره لها من سبل تهدي إلى الفلاح؛ فنجده يحصي فضله عليها، من خلال قوله:" عرّفناهم الكتّاب، والسّنة، وعلّمناهم الفرائض والسّنن، وديّناهم الدّين والإسلام..."[32].

ويمضي الإمام في كلامه مشيرا إلى مدى إحسانه إلى قريش بقوله:" أليس بنا اهتدوا من متاه الكفر، ومن عمى الضّلالة، وغيّ الجهالة، وبي أُنقذوا من الفتنة الظّلماء، والمحنة العمياء"[33]، ثم يبدي الإمام سخطه، ونقمته عليهم، ويظهر جبنهم ويُجلي منزلته وسطهم في قوله:" ويلهم ألمأخلّصهم من نيران الطّغاة، وسيوف البغاة ووطأة الأسد؟"[34]، ونجده يوظف أسلوب التعجب، وما يتلوه من استفهامات عديدة غرضها إظهار المنزلة الحقيقيّة لقريش، ويفصح في ذلك عن وقائع جرت أيام العرب تجلّت من خلالها شجاعة الإمام، وإدبار قريش .

وما زاد الإمام ألما هو نعتهم له "بالحريص المتّهم"؛ فتكراره لها دليل على شدّة تأثره بها وحدّة وقعها في نفسه، وتدور معاني خطبته في الكوفة بعد التحكيم، وخروج الخوارج من أهل البصرة حول الطّاعة، والمعصية، والأمر، والنّهي، والمخالفة، والمنابذة، والجفاء، والنصح،

والريبة، وكل ذلك تصوير للأفكار التي كانت تضطرب في خياله، والعواطف المختلفة في قلبه، وتقترب نبرة هذه الخطبة من معاني النّقمة، والتهديد، والغيظ؛ فبعد تحوله من أمير إلى مأمور، أصبح قائدا غير مطاع وهذا ما زوّد فاجعته؛ لأنّه كان يظن أنّ نزاعه مع معاوية كان يقتصر على الكلام فقط، فما لبث أن وجد الكلام يتحوّل إلى دمّ ،ونجيع وما زاد الطّين بلّةً هو تفرّقُ المسلمين إلى صفّينِ متناحرينِ، فما كان له إلا أن قَبِل التحكيم الذي أبعد عنه أتباعه، فبدلا من توحيد المسلمين زادهم فرقة وانشقاقا، فاندلعت نيران الفتن بين المسلمين، وهذا ما جعل الإمام ينحدر من فجيعة إلى أفجع منها، لهذا نراه يقول بعد أن خُدِعَ خدعة التحكيم:" ألا إنّ هذين الرّجلين اللّذين اخترتموهما حكمين، قد نبذا حكم القرآن، واتّبع كلّ واحد منهما هواه، فحكما بغير حجّة بيّنة، ولا سنّة ماضيّة، واختلفا في حكمهما، وكلاهما لم يرشد؛ فبرئ الله منهما، ورسوله، وصالح المؤمنين"[35]، والملاحظ على هذه الخطبة هو تكريره للألفاظ، والمعاني مصحوبة عادة بإيقاعات تساعد على إيراد الفكرة الواحدة بحلل مختلفة، مفعمة باليأس والمرارة، تنطوي ألفاظها على معان تجعل من عليّ إماما في البلاغة والدّين والسّياسة.

وقد بدأ الإمام في خطبة له لما رأى أنّ ميمنته قد عادت إلى موقفها، وكشفت من بإزائها من العدو مكظوما، موتورا، متخبطا، بين اللّبس والحيرة جرّاء تشتت أتباعه، فهم لم يتّفقوا على رأي أو هدف؛ فنجده في المقطع الأول من الخطبة، معاتبا له ،كما في قوله: "إنّي قد رأيت جولتكم، وانحيازكم عن صفوفكم، تحوزكم الجفّاة الطّغاة أعراب أهل الشّام، وأنتم لهاميم العرب، والسّنام الأعظم، وعمّار اللّيل بتلاوة القرآن، وأهل دعوة الحقّ إذ ظلّ الخاطئون، فلولا إقبالكم بعد الإدبار، وكرّكم بعد الانحياز، لوجب عليكم ما وجب على المولي يوم الزّحف دبره فكنتم من الهالكين."[36]

أما في المقطع الثّاني، فنجده يغيّر موقفه، ويحاول تشجيعهم، وتعزيز ثقتهم بأنفسهم، وهنا نلمس نوعا من الهدوء الذي يهيمن على نفسيّة الإمام، كما في قوله:" ولكن هوّن عليّ بعض وجدي وشفى بعض أحاح نفسي إني رأيتكم حزتوهم كما حازوكم وأزلتموهم كما أزالوكم...."[37].

إنّ ما استخلصناه من عرضنا لموضوعات خطب الإمام عليّ، يوحي أنّ الهدف هوالتعرّف على مميزاتها الغالبة، والتي تستدعي النّظر، والتأمل لما احتوته من روعة في الكلام، ودأب على تضمين العبارة أقلّ ما يمكن من الألفاظ في أكثر ما يمكن من المعاني، حتى نظن أنّ المعاني تتفجر تفجرا، وتزداد بعدا، وعمقا يعكس ثقافة الإمام الخبيرة بطبيعة النّفوس، وأحوال البشر.

والجليّ أنّ الإمام تصدى في خطبه إلى موضوعات عديدة تشترك جميعها في باعثها المتمثّل في الانفعال المتضمن لمعاني الحماسة، والحيويّة، والإثارة، كما نلحظ ازدواج شخصية الإمام بين شخصية القائد الصّارم، والإمام اللّين، ولم يقتصر الخطيب في غايته على هدف الإيضاح بل تعداه إلى الإيحاء، والتأثير مصحوبا بجرس إيقاعي أوقع أثرا في النّفس، بيد أنّ النغميّة في خطبه جاءت عابرة غير متعمّدة "وإذا كانت الحلّة البلاغيّة التي تكسو خطبه تحدث الانفعال في نفس السّامع فإنّ ثقافة الإمام، وخبرته العميقة بطبائع النّفس البشرية، كانت تعمق الانفعال، وتجعله يقيم في نفوس النّاس متفاعلا فيها".[38]

3.4. بنية الخاتمة: الانتهاء:

ينعت ب «حسن الختام «،وهو أن يجعل المتكلم آخر كلامه عذب اللّفظ حسن السّبك صحيح المعنى مشعرا بالتّمام حتى تتحقّق (براعة المقطع) بحسن الختام، إذ هو آخر ما يبقى منه في الأسماع، وربما حفظ من بين سائر الكلام لقرب العهد به "[39]. ويشير **القرطاجني** إلى الأهمية التي تكتسيها الخاتمة، كونها آخر مرحلة يرتكز عليها انتباه السّامع من النّص، وأكثر ما يحتفظ به الذّهن منه، والقبح في الخاتمة يعود على النّص مهما كانت درجة حسنه؛ لأنّه لا شيء أقبح من كدرٍ بعد صفو.[40]

ولابدّ أن تختلف الخاتمة عن الموضوع، فهي لا تتسع إلى الجدل، والنّقاش، والمحاورة" بل ينبغي لها أن تنفجر بالأفكار، والعواطف اليقينيّة التي تبقى مدويّة في وجدان السّامع"[41].

ولقد اعتاد الخطباء في نهاية خطبهم على تلخيص ما سبق لهم أن توسعوا فيه، ودأب قسم منهم على ختم خطبته، باستخلاص فكرة رئيسية تشمل سائر الأفكار التي تطرّق إليها الخطيب، فتوقظ حواسه، وتضاعف من تأثيره.

ونحاول الآن تسليط الضّوء على خاتمة الخطب التي درسناها آنفًا، حتى نميط اللّثام عن مدى تلاحمها، وتماسكها، وهنا نبدأ بخطبته في المدينة المنوّرة، والتي ختمها بقوله:" طوبى لمن أخلص لله علمه وعمله، وأخذه وتركه، وكلامه وصمته، وقوله وفعله، ولا يكون المسلم مسلما حتى يكون ورعا، ولن يكون ورعا حتى يكون زاهدا، ولن يكون زاهدا حتى يكون حازما، ولن يكون حازما حتى يكون عاقلا، وما العاقل إلا من عقل الله، وعمل للدّار الآخرة..."[42]

نفهم من قوله هذا أنّ الإمام ذيّل خطبته بتهنئته للمخلصين لله في كلّ أمورهم؛ فأعمالهم كلّها خالصة لوجه الله وحده لا شريك له، وأراه مصيبا في ذلك؛ لأنهم فعلا بصنيعهم هذا يستحقون التبجيل، والتقدير، والتهاني، والثناء، ويتبع قوله بنوع من الاستدراج في الكلام وهو في رأيي أسلوب اعتمده عن قصد، حتى لا يفاجئ السّامعين بما يعتقده كلّه، فيحاول أن

يتدرّج معهم في الكلام حتى يخلص إلى نتيجة تُلخّص له كلّ ما سبق أن أشار إليه، وهي إدراك العاقل من النّاس.

أما عن خطبته الخاليّة من الألف، فاختار لها خاتمة ذات أسلوب بهيج ينمّ عن مدى اطلاع صاحبه في أمور الدّنيا، والآخرة، كما سنرى في قوله :"هذه منزلة من خشي ربّه وحذر نفسه وتلك عقوبة من سولت له معصيته، فهو قولٌ فصلٌ، وحكمٌ عدلٌ، تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ نَزل به روح قدس مبين على قلب نبي مُهتدٍ يضش رشيد صلّت عليه رسل سفرة مكرمون بررة فليتضرع متضرعكم ويستهل مستهلكم ويستغفر كلّ مربوبٍ منكم لي ولكم وحسبي الله وحده "[43].

فهو هنا حلّ محل البشير، والنّذير مستدلًا أحكامه من القرآن الكريم وما لفت انتباهنا هوما اعتمده من تعميم، ثم تخصيص، إذ يتبادر لنا أوّل الأمر أنّه يتحدّث عن القرآن الكريم بصورة عامّة متتبعا مراحل نزوله على الرّسول "صلّى الله عليه وسلّم"، خاتما حديثه بأمر سامعيه إظهار الذّل، والتضرع لله سبحانه، وتعالى ،طالبا له ولهم الاستغفار والاحتساب.

وعن خطبته " في الملاحم", فقد ختمها بقوله: "فعند ذلك تُقتلون، وبأنواع البلاء تضربون يعضّكم البلاء، كما يعضّ الغارب القتب..."[44]،فبعد الفتنة التي عاشها الإمام جرّاء ما فعله به قومه من تخاذل، وبُعْد عن الدّين تنبأ الإمام لمستقبل قومه، وخرج بنتيجة توحي بحلول البلاء عليهم، ذلك البلاء الذي يبقى أثره دائما، ويبالغ في ذلك حين يعزّزه بتشبيهه بعضة القتب في غارب البصر تلك العضّة التي لا يمّحي أثرها أبدا.

فَلَجأ الإمام هنا إلى الخيال والتصوير، لعلمه بأثر ذلك على نفسيّة قومه فبدل أن تبقى الصّورة غامضة في النّفس حاول الإمام تبسيطها باستعمال المقارنة، حتى تتضّح في الذّهن، وتصبح أكثر إقناعا وتأثيرا.

وهو في ذلك يقترب من خاتمته في الخطبة الموالية، " بئس حشّاش الحرب أنتم، تكادون ولا تكيدون، وتنتقص أطرافكم، ولا تتحاشون، ويُنام عنكم وأنتم ساهون..."[45]، فيشبّه هنا قومَه بحشّاش الحرب، وهدفه من وراء هذا التشبيه واضح جليّ، هو تأنيبهم ولومهم عن تثاقلهم، ونفورهم، وتكاسلهم عن الجهاد في سبيل الله، وليس غاية تأنيبه هنا الإهانة فقط، لكنّ هدفه الأسمى هو دفعهم إلى رفع التحدّي، ونزع ثوب الكسل، والتحلي بالإيمان، والقوّة والصّبر.

وها هو الإمام أيضا في خاتمة أخرى يقول فيها:" أنا صاحب هذه المشاهد، وأبو هذه المواقف، وابن هذه الأفعال الحميدة..."[46]، فبعد أن بالغت قريش في ظلمه، واتهامه، حاول استحضار مشاهد من حياته تذكّره بما جاد به من مواقف، وأفعال لصالح قريش، فوجد أنّ

فضله عليها جمّ، وتضحياته في سبيلها كثيرة، وجميله لها لا مثيل له، فتحسّر لذلك، وختم خطبته بتعداد فضله على قريش الظالمة.

ونجده في خاتمة أخرى منذرا قومه، ومحذّرهم من سخط الله، وغضبه عليهم لما توصّلوا إليه من اختيار حكمين غير عادلين، ولا متبعين للقرآن، والسّنة في حكمهما، لهذا خاطب الإمام قومه بلهجة ساخطة، تعكس مدى تأثره بغدرهم له، ويتجلى ذلك في قوله: "فاستعدوا وتأهبوا أصيخوا في معسكركم إلى الله ..."[47]،وهدفه من تتابع الأفعال هنا مخاطبة ضمائرهم، وإيقاظها من سباتها، وغفلتها، وانتباهها لما سيحل بها من وراء ذلك الاختيار الخاطئ.

وقد حاول الإمام أن يجنّب قومه مذلّة الفرار، والعار المترتب عليه، فجعله خاتمة إحدى خطبه، حيث ساق لنا جملة من الحجج مبرزا لنا فيه مساوئ الفرار، وما ينجم عنه من غضب إلهي ونغص في العيش، ومهانة ملازمة دائمة، كما في قوله: "وليعلم المنهزم أنّه مسخط ربه وموبق نفسه، وإنّ في الفرار موجدة الله عليه، والذّل اللازم، والعار الباقي، واعتصار الفيء من يده، وفساد العيش عليه، وأنّ الفّار لا يزيد في عمره، ولا يرضى ربّه فموت المرء محقا قبل إتيان هذه الخصال خير من الرّضا بالتأنيس لها، والإقرار عليها .."[48].

يمكننا أن نقول إنّ الإمام قد أبدع في خطبه بعد أن عمد إلى التعبير النثري، الذي يهدف إلى التوضيح، والإقناع بالإفهام، والمنطق، ونجمل كل ما سبق ذكره في خطاطة "بارث" التي يعكس من خلالها أجزاء النّص الحجاجيّ، مبرزا فيها ثنائية الدّعوة العاطفيّة في المقدّمة، والخاتمة، والدّعوة إلى الواقع والعقل في العرض.[49]

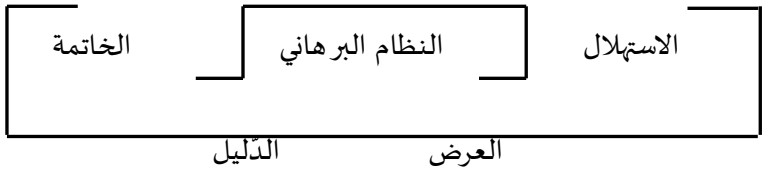

النظام العاطفي/ الانفعالي.

فبهذا التقسيم الجيّد، وبهذا الأسلوب الرّاقي الذي راعى فيه الإمام مقتضى الحال مستمدا من طاقته الإيمانيّة، وثرائه اللّغوي، وقدرته على التصرف، وبراعته في الانتقاء، والاختيار، استطاع الإمام أن يصل إلى قلوب النّاس وعقولهم، مستميلا مقنعا.

- **خاتمة:**

بعد هذه النظرات العجلى في تصميم خطب **الإمام علي** ودوره في بناء صرح الإقناع والحجاج في فحوى الخطب، أمكننا الخلوص إلى نتائج أبرزها:

ـ ترتيب البنى الهيكلية الثلاث عامل مهم في الخطابة خاصة إذا سخرت له مهمة الإقناع واستدراج المتلقي بسلاسة للإذعان للخطيب من خلال اعتماد آلياتٍ حجاجيةٍ ذات صفاتٍ لغويةٍ وبلاغية ومنطقية ذات طاقاتٍ تأثيريةٍ هائلةٍ.

ـ يمثل الاستهلال توطئة لعوالم الخطب نطل من خلاله على تصور الإمام لقضية معينة فيمدنا بملخص يتسم بالتكثيف الشديد للمحتوى الذي سيسهب في عرضه.

ـ تعددت أشكال الاستهلال في الخطب لتعدد مضامينها ومتلقيها .

ـ يعكس العرض التدرّجات الحجاجية على مستوى الخطب والبناء الهرمي المتنامي لها المتمثل في جملة البراهين المسخرة للإقناع على اعتبار أن الخطابة هي الحقل الأمثل للحجاج، فلا وجود لعرض خطابي بلا حجج متنوعة متدرجة في سلم يقتضيه المقام.

ـ تعلن بنية الانتهاء عن اكتمال الموقف الخطابي واستواء نسيجه وبيان مقاصده التي يرجى من المتلقي الإذعان لها.

ـ ليس ضروريا أن يلتزم الخطيب هذه التراتبية بين أجزاء القول، فأحيانا يجد نفسه مضطرًّا إلى تجاوز عنصرٍ ما لِقلّة جدواه وتركه حين يرى أن طيه أبلغ من ذكره في الخطبة فيوظف ما يجده يخدم الإقناع ويتخلى عن الترتيب المعهود للخطابة.

- الإحالات والتهميشات:

---

[1]- عبد الجليل شلبي: الخطابة وإعداد الخطيب، ط1 بيروت، دار الشرق، 1981،ص 10.

[2]- محمد برقان: الاتصال الإقناعي في فن الخطابة. مجلة كتابات معاصرة عدد 61. م. س، ص23.

[3]- أحمد الشّايب: الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لدراسة الأساليب الأدبية، ط6، القاهرة .مكتبة النهضة المصرية. 1966 ،ص 23

[4]- إيليا حاوي: فن الخطابة وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان ،1997، ص 08.

[5]- ابن منظور: لسان العرب مادة "هلل"، ص4688.

[6]- الزمخشري: أساس البلاغة ج2، ص 551.

[7]- حسن إسماعيل: شعرية الاستهلال عند أبي نواس: دراسة في بنية التناسب النصي، دار فرحة للنشر والتوزيع، ص 19.

[8]- أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار إحياء التراث العربي: بيروت - لبنان- ط12، ص 419

[9]- إيليا حاوي: فن الخطابة، م.س، ص19.

[10]- الهادي كاشف الغطاء: مستدرك نهج البلاغة، منشورات مكتبة الأندلس، بيروت، لبنان: ص 02.

[11]- الهادي كاشف الغطاء: المستدرك: م،س: ص 47.

[12]- الهادي كاشف الغطاء: المستدرك: م،س: ص 63.

[13]- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء: تح: محمد الحبيب خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.ط1981.02 .ص 305.306.

[14]-الهادي كاشف الغطاء المستدرك: م، سص 77.

[15]-الهادي كاشف الغطاء المستدرك: م،سص 60.

[16]-الهادي كاشف الغطاء المستدرك: م،سص 59.

[17]- أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة .م.س، ص 419.

[18]- ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت: 1999، ص 224.

[19]- أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة: م.س، ص 420.

[20]- إيليا حاوي: فن الخطابة، م.س، ص 20.

[21]- ايليا حاوي: فن الخطابة، م.س، ص 20.

[22]-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،س ،ص 19.

[23]-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،س، ص 20.

[24]-الهادي كاشف الغطاء: المستدرك: م،س، ص 20.

[25]-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،س،ص 44.

[26]-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،س،ص 45.

[27]- إيليا حاوي: فن الخطابة، م،س،ص 138.

[28]-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،س،ص 48.

[29]-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،س،ص 48.

[30]-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،س،ص 64.

[31]-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،س،ص 64.

[32]-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،س،ص 78.

[33]-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،س،ص 78.

[34]-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،س،ص78.

[35]-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،س،ص 61.

[36]-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،س،ص 59.

[37]-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،سص 59.

[38]- إيليا حاوي :فن الخطابة، م.س، ص 158.

[39]- أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة، م.س، ص 421.

(40)- انظر في ذلك حازم القرطاجني: منهاج البلغاء،م،س :ص 285.

(41)- إيليا حاوي : فن الخطابة، م.س، ص 21.

(42)-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،س، ص 200.

(43)-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،س،ص 46.

(44)-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،س،ص 48.

(45)-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،س،ص 64.

(46)-الهادي كاشف الغطاءالمستدركم، س، ص 79.

(47)-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،س، ص 61.

(48)-الهادي كاشف الغطاءالمستدرك: م،س، ص 60.

(49)- محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، م.س، ص 139.

ـ قائمة المراجع:

[1]- ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت: 1999.

[2]- ابن منظور: لسان العرب: دار صادر، بيروت ،المجلد الثاني، ط1 ،دت.

[3]- أحمد الشّايب: الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لدراسة الأساليب الأدبية. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة، ط1966،6.

[4]- أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار إحياء التراث العربي: بيروت - لبنان- د.ط. د.ت.

[5]- الزمخشري: أساس البلاغة : شرح وتحقيق عبد المنعم خفاجي و عبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت لبنان، ط1، 1991.

[6]- الهادي كاشف الغطاء: مستدرك نهج البلاغة، منشورات مكتبة الأندلس، بيروت، لبنان د.ط. د.ت.

[7]- إيليا حاوي: فن الخطابة وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان د,ط،1997.

[8]- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء: تح: محمد الحبيب خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.ط1981.02 .

[9]- حسن إسماعيل: شعرية الاستهلال عند أبي نواس: دراسة في بنية التناسب النصي، دار فرحة للنشر والتوزيع، المنيا ، ط1، 2003.

[10]- عبد الجليل شلبي: الخطابة وإعداد الخطيب، دار الشرق، بيروت ، ط1، 1981

[11]- محمد برقان: الاتصال الإقناعي في فن الخطابة. مجلة كتابات معاصرة شهري أيلول وتشرين الأول، بيروت،2006 ،عدد61.

Romanization of Arabic references:

1- Ibn al-Athīr : al-mathal al-sā'ir fī adab al-Kātib wa-al-shā'ir, tḥ : Muḥammad Muḥyī al-Dīn 'Abd al-Ḥamīd, al-Maktabah al-'Aṣrīyah, Ṣaydā, Bayrūt : 1999.
2- Ibn manẓūr : Lisān al-'Arab : Dār Ṣādir, Bayrūt, al-mujallad al-Thānī, Ṭ1, dt _
3- Aḥmad alshshāyb : al-uslūb, dirāsah balāghīyah taḥlīlīyah li-Dirāsat al-asālīb al-adabīyah,. Maktabat al-Nahḍah al-Miṣrīyah. al-Qāhirah, ṭ6, 19663 -
4- Aḥmad al-Hāshimī : Jawāhir al-balāghah fī al-ma'ānī wa-al-bayān wa-al-badī', Dār Iḥyā' al-Turāth al-'Arabī : Bayrūt-lbnān-D. Ṭ. D. t
5 - al-Zamakhsharī : Asās al-balāghah : sharḥ wa-taḥqīq 'Abd al-Mun'im Khafājī wa 'Abd al-'Azīz Sharaf, Dār al-Jīl, Bayrūt Lubnān, Ṭ1, 1991
6- al-Hādī Kāshif al-Ghiṭā' : Mustadrak Nahj al-balāghah, Manshūrāt Maktabat al-Andalus, Bayrūt, Lubnān D. Ṭ. D. t
7- Īliyā Ḥāwī : Fann al-khaṭābah wa-taṭawwuruh 'inda al-'Arab, Dār al-Thaqāfah, Bayrūt, Lubnān D, Ṭ, 1997
8- Ḥāzim al-Qarṭājannī : Minhāj al-bulaghā' wa-sirāj al-Udabā' : tḥ : Muḥammad al-Ḥabīb Khūjah, Dār al-Gharb al-Islāmī, Bayrūt, Lubnān. ṭ1981. 02
9 - Ḥasan Ismā'īl : shi'rīyah al-istihlāl 'inda Abī Nuwās : dirāsah fī Binyat al-tanāsub al-naṣṣī, Dār Farḥah lil-Nashr wa-al-Tawzī', al-Minyā, Ṭ1, 2003
10- Abd al-Jalīl Shalabī : al-khaṭābah wa-i'dād al-Khaṭīb, Dār al-Sharq, Bayrūt, Ṭ1, 1981.
11- Muḥammad Barqān : al-ittiṣāl al'qnā'y fī Fann al-khaṭābah.
Majallat Kitābāt mu'āṣirah Shahrī Aylūl wtshryn al-Awwal, Bayrūt, 2006, 'adad 61